الاتجاهات الحديثة في القصة السوفياتية

بقلم : خيري حماد

كثيرا ما نسمع ، ويسمع القراء معنا ، بعهد « ذوبان الجليد » في الأدب السوفياتي الحديث ، وهو اصطلاح ، ان دل على شيء ، فانما يدل ، على أن أوضاع الحياة المادية في الاتحاد السوفياتي اليوم ، واجواءه ، وامزجته ، هي غير تلك التي كانت قائمة في عهد ستالين ، وان الاختلاف كبير بين العهدين ، الى الحد الذي لا يستطيع المرء أن يصدق ، ان هذين العهدين يمتان الى نظرة مذهبية واحدة ، تتناول كل جانب من جوانب الحياة . فلقد تبدلت هذه الحياة تبدلا كبيرا نحو الافضل ، في كل شيء . ومازالت تسير في هذا الطريق من التحول . متحدية كل مايعتور طريقها من عقبات وموانع ، ومتغلبة على كل ما قد يظهر أمامها من كوابح ، ولا سيما في ميدان الادب ، الذي تؤلف القصة اليوم أهم ناحية من نواحيه .

فقد مرت القصة السوفياتية في السنوات التي انقضت منذ وفاة ستالين ، في مراحل من التبدل البطيء الذي يتميز بالاثارة احيانا ، ويفتقر اليها احيانا كثيرة أخرى ، وأخذ عدد من كتابها ينشطون كل النشاط ، في التركيز على أحداث الحياة العاطفية بعد ان كانوا في ايام ستالين ، لايكترثون الا بالمواضيع السياسية او الاجتماعية ، والا بعوالم الصناعة والزراعة وآفاتهما . وهكذا استعادت الحياة الوجدانية الخاصة ، في عهد خروشوف جزءا من الارض التي كانت قد فقدتها في عهد ستالين .

فمنذ انتهى عهد ستالين ، راح الكتاب يشرعون في معالجة اوضاع الحياة على صعيدها الانساني ، وأخذ النقاد . وفي طليعتهم تراشينكو ، يمجدون البحث عن الحقيقة من اجل الحقيقة ، كما وجه ناقد اخر . لعله بستوفسكي . نداء الى جميع الكتاب السوفيات ، ناشدهم فيه ، ان يغوصوا في أعماق أفئدتهم . وأن يحاولوا

استجلاء غوامض النفس الانسانية ، ومعرفة مكنوناتها ومعمياتها • واعلن ننجالكوف ان جمهرة القراء ، تعودوا ان يقرأوا ، فى عهد ستالين ، كل ما يبعدهم عن حقائق الحياة ، وواقع متاعب الناس وآلامهم ، وأفراحهم • كما هاجم لافرنيف الذى لم يقدر له أن يعمر طويلا ، القصص التى تستبدل صراعات العواطف الانسانية بالمخططات ، والناس بالشخصيات الآلية ، واضاف ان هناك قصصا لايستطيع القارىء فهمها ، وان هناك مسرحيات لايستطيع النظارة استيعابها ، الا اذا حمل وحملوا كتب المراجع التقنية فى جيوبهم يرجعون اليها فى حل مايرونه أمامهم من طلاسم •

ولعل أروع صورة لعصر « ذوبان الجليد » هذا فيما كتبه ايليا اهرنبورغ الكاتب السوفياتى المشهور ، وصاحب القصة المشهورة بهذا الاسم ، عندما لخص المعركة من اجل الحقيقة الانسانية ، واحداث المرحلة الأولى من هذا التحول الضخم فى اتجاه القصة السوفياتية ، بقوله ••• « ليس الكاتب الة تسجل ، وهو لايضع كتابه لانه يعرف كيف يكتب ، أو لان عليه ان يكسب عيشه عن طريق ما يكتبه ، وانما يضعه ، لانه يجد أن من الضرورى أن ينقل للناس شيئا من نفسه • فهو كالمرأة الحبلى ، التى لابد وان تضع وليدها • وهو يرى الناس وما حوله ، وما يحس به ، ثم يجد نفسه مضطرا الى ان يصف ما يرى وما يحس به • »

وسرعان ما انعكست فى السنوات الاربع التى تلت وفاة ستالين ، الصور القديمة الجامدة للحياة السوفياتية ، وانقلب كبار الموظفين الذين كانوا موضع التمجيد فى أيام ستالين الى اشرار ، كما فى القصة التى وضعها دودنيتسيف فى عام ١٩٥٦ ، والتى احدثت دويا فى الاتحاد السوفياتى كله ، والتى حملت اسم « ليس بالخبز وحده » •

وقد لاتكون هذه القصة من الروائع ، ولكنها تعكس التيار الجديد الذى اجتاح القصة السوفياتية ، واعتبر بعثا هاما للتقاليد الادبية الروسية العريقة ، باتجاه تشيخون وتيرجنيف وبوزنين • فهى تعكس حاجات اللحظة التى كتبت فيها • فقد كان الناس لايتحدثون فى طول الاتحاد السوفياتى وعرضه فى ربيع عام ١٩٥٦ وصيفه الا عن خطاب خروشوف فى المؤتمر العشرين للحزب ، وهو الخطاب الذى حمل فيه على عبادة الفرد • وما خلقته من شرور اجتماعية ، فى مجالات الحياة العامة •

يعيش بطل القصة « لوباتكين » ، وهو مخترع عبقرى ، وحيدا • وسرعان ما يصبح الضحية لتعسف دروزدوف ، مدير المصانع الفاسد والمتفلسف ، والقصة هى تاريخ الصراع بين الرجلين ، بين الانسان المثالى ، والشرير المتفلسف • وكانت الطريقة المألوفة فى القصة السوفياتية حتى ذلك الحين ، ان يصور البطل ، محاطا بحب العمال واحترامهم ، وتضامنهم معه ، الى ان يجىء سكرتير الحزب الواعى ، فينجده وينقذه من غضب رئيسه المتفلسف • لكن دودينتسيف ، لم ينح هذا المنحى ، وانما راح يصف مجموعة من الدسائس والمؤامرات الشريرة التى تقع فى داخل المصنع ، وتؤدى الى اعتقال البطل وارساله الى أحد معسكرات الاعتقال • ولكن يجىء عهد الانفراج ، وتتحسن الاوضاع ، فيطلق سراحه ويؤخذ باختراعه ،

ويطلب اليه ان يحتل مركزه فى المؤسسة فيرفض لانه يؤثر ان يظل مناضلا طيلة حياته ، ضد البيروقراطية ·

وهكذا أخذ هذا الاتجاه الجديد ، يعنى بالامور الموضوعية ، ويركز على التفاصيل والحوادث الصغيرة ، والانطباعات اليومية ، وأخذت القصص الجديدة ، تعكس الابتسامات والعواطف والتنهدات ، وبرزت قصص التحليل النفسى ، كما ظهرت لأول مرة منذ نحو من أربعين عاما ، قصص العواطف الغرامية ، التى تنشأ بين الرجل والمرأة ، ولكن بصورة نقية وكاملة ، لا أثر فيها لاسفاف الجنس الذى يبدو فى اتجاهات القصة فى العالم البورجوازى ·

قصصيان نموذجيان

وبرز فى الحقبة الاخيرة ، قصصيان شابان من طلائع هذه المدرسة الحديثة هما كازاكوف وناغيبين · وقد لايكون هذان الكاتبان من المقروئين جدا فى الاتحاد السوفياتى ، ولكن جميع الذين يعنون بالشؤون الادبية ، ولا سيما اذا **كانوا من النقاد ، يولونهما اهتماما زائدا ، لانهما يمثلان شيئا جديدا ، قد لايتفق مع القيم العامة للحزب ، ولكنه لايخرج عليها ، خروجا صريحا ، فهما لايعبران عن مخالفتهما لهذه القيم بحوار مباشر ، وانما باهمالها ، وتجاهل تصويرها ، وتعهد ما يعتبرانه دنياهما الخاصة ، بالعناية والاهتمام ، ولو قرأ الانسان قصة لاحدهما دون ان يعرف هويته ، لما استطاع ان يحكم على صاحبها بأنه من كتاب القصة فى الاتحاد السوفياتى، هذا اذا تبدلت الاسماء الروسية فيها بغيرها · ولكنه يستطيع ان يتميز فيها مشاعر انسانية تسمو على الابتذال والاسفاف ·**

ولد أولهما يورى كازاكوف فى مدينة موسكو فى عام ١٩٢٧ · فهو اذن من الذين ولدوا ونشأوا ووعوا الحياة فى عهد الثورة · درس الموسيقى فى صباه ، ثم عمل عازفا فى احدى الفرق الموسيقية · ولم يبدأ الكتابة الا فى عام ١٩٥٧ عندما أخذ ينشر بعض قصصه القصيرة ، فى المجلات الادبية الشهرية ، ليجمعها فى مجموعتين نشر اولاهما فى كتاب باسم « مانكا » فى عام ١٩٥٨ ، وثانيتهما فى كتاب آخر باسم « فى محطة القطار » فى عام ١٩٥٩ ·

وتتركز معظم شخصيات قصصه ، على مخلوقات قدر لها ان تواجه الحياة وهى مشوهة ، أو مصابة باحدى العاهات · ومن هنا يكون عنصر الاشفاق على بطل القصة المشوه ، الصورة الغالبة على القصة كلها ·

والبطلة فى قصة « مانكا » ، فتاة يتيمة فى الرابعة عشرة من عمرها ، نحيلة الجسم ، دميمة الصورة ، تعمل فى توزيع البريد ، فى منطقة قطبية نائية ، تقع على ساحل المحيط ، وقد تباعدت مساكنها وانتشرت ، بحيث باتت الابعاد عبئا نائيا عليها ·

وتقع « مانكا » لسوء حظها فى هوى « بيرفيلى » وهو أجمل شباب المنطقة ، واكثرهم جرأة واقداما • مما جعله محط انظار الفتيات جميعا • وهو يجهل بالطبع، ما تكنه له هذه الفتاة الدميمة من حب • لاسيما وانه مشغول بحب « لنيكا » ، اجمل فتاة فى المنطقة كلها •

ويقع الخلاف بين الحبيبين ذات يوم ، ويحس بيرفيلى ، بشىء من الامتهان من جانب حبيبته ، فيستقل زورقا ، يقتحم به المحيط الذى تعلو فيه الأمواج ، من جراء عاصفة هوجاء • وتحاول « مانكا » ان تثنيه عن عزمه ، فلا تستطيع ، وتتوسل اليه بأن يعود فلا يلين ، فتستقل الزورق معه ، وتتلاعب بهما الامواج ، وينقلب القارب ويكادان يغرقان • لولا أن تتداركهما عناية الطبيعة ، فتقذف بهما الامواج على ساحل لا أثر للحياة فيه • وفجأة ، تقع عيونهما على كوخ منعزل ، وحيد ، فيؤمانه ليجففا ثيابهما ، وليبحثا عن بعض « الفودكا » • ويتحقق لمانكا حلمها ، فيحس بيرفيلى اخيرا بوجودها كامرأة • ويشرع فى عناقها • وهنا يقع مالا يحسبه احد • اذ تصده الفتاة عنها ، وتخرج من الكوخ مخلفة اياه فيه •

وتنتهى القصة عند هذا الحد ، دون ان يوضح لنا كازاكوف ، لماذا تصرفت الفتاة على هذا النحو ، ودون أن يلمح بشىء الى أى من احتمالات المستقبل • فهو يترك للقارىء أن يتوقع احتمال عودتهما الى اللقاء • ملقيا ستارا من الغموض والابهام على حالة مانكا العقلية ، التى يصدرها ، بانها مزيج من الفزع والسرور والشعور بالنقص والعار •

فهى ليست فى الصورة التى يرسمها ، منطقية ، أو معقولة ، بل ان من العسير حقا تحليل تصرفها فى ضوء العقل والمنطق • فهى تحبه ، وهى تتحرق شوقا الى لقياه ، وعندما تتحقق لها امنيتها ، تصاب بالفزع والخوف ، لتحس بعدهما بمزيج من الرضا والسخط والرغبة فى الانتقام • انها تمثل الحياة لكازاكوف ، الذى يرى انها شىء لايمكن فهمه ، غنى بالمفاجآت • أما القلب الانسانى ، فمتغير ومندفع • وهو يريد ان يسرد القصة بعواطفه التى لاتخطئها العين ، ولكنه يرى ان اصدار الاحكام الخلقية شىء يتعدى حدود ما يريد •

وكثيرا ما اتهم كازاكوف لقصته هذه وغيرها ، بالتشاؤم • فهو يصور كثيرا فشل الانسان فى تحقيق رغباته • وهو فى قصة « بيت تحت الهاوية » يصور شابا • اكتشف وجود الشر الى جانبه ، ومع ذلك ، فقد استسلم له ، بالرغم من احساسه بان الواجب يدفعه الى ان يعمل شيئا لدرء هذا الشر •

يوفد البطل « بلوخين » فى موسكو ، الى بلدة صغيرة ، ليعمل فى مكتبتها العامة ويدرس عادات اهلها فى القراءة ، والاساليب التى تتبعها المكتبة • ويكون الفندق الوحيد فى البلدة عند وصوله اليها مكتظا بالنزلاء • وينشد المعونة فى العثور على مأوى من موظفى المكتبة ، فيبعث به هؤلاء الى سيدة تؤجر غرفا فى منزلها •

والسيدة ، انسانة عادية ، وفى منتهى القبح والشراسة ، لكن ابنتها جميلة ، ومظلومة · انها سجينة أمها ، اذ لا تعرف شيئا عن العالم · وتحس الفتاة بما تسيرها اليه ، فتكثر من سؤالهعن الحياة فى موسكو ، مما يضايق امها ويغضبها · وتبالغ السيدة فى مطالبته باجر عال ، كما ترفض القيام له بالخدمات العادية ·

ويحس الشاب بالشر حوله ، ولكنه لايعمل شيئا لدرئه ، وانما يكتفى بالرحيل عن المنزل · انه يرى الواجب يدعوه الى انقاذ الفتاة من سجنها الذى يعرف انها لن تتحرر منه الا بمساعدته ، ولكنه يعجز عن اداء واجبه ، ويكتفى بالجلوس فى المكتبة واعداد القوائم ، وسجلات القراء ، وما شابه ذلك ، مخليا ، بين تلك الروح البشرية الشقية وبين الدمار ·

ولعل القيمة الايجابية الوحيدة للقصة ، بالاضافة الى الصور المشرقة الرائعة التى يرسمها كازاكوف للبلدة والمكتبة ، والشارع الذى يقبع فيه البيت الذى اقام فيه والذى يؤلف عالما مظلما رهيبا ، هى تلك الومضة الخاطفة التى يلمح بها الشاب وجود الفتاة ، والصورة التى رسمها الكاتب ، لما اعتمل فى نفس البطل من خلجات وعواطف فيها التصارع ، والتضارب · مما يذكرنا الى حد ما ، بتلك الصور التى تسيطر على قصص تشيخوف ·

وهناك قصة ثالثة ، هى قصة « الازرق والاخضر » ، وقد روى فيها كازاكوف ، تاريخ حب اليوشا لفتاة هى ليليا · منذ كان بينهما اللقاء الأول ، فى موعد فرصة القدر ، عابرا قبلتهما الأولى ، والمراحل التى تلتها ، الى ان التقت رجلا آخر ، تزوجته، وارتحلت معه الى الشمال ·

وفى هذه القصة ، يروى كازاكوف ، على لسان البطل ، وفى صيغة الحاضر ، تاريخ هذا الحب ، ولكنه كثيرا ، ما يشطح هنا ، وهناك ، شطحات لا معنى لها ، الا سذاجة وقوعها ، وكثيرا ما يلاحظ ادق تفاصيل العالم الذى يحيط به ، ويفكر فى قضايا قد تبدو فى منتهى التفاهة ، كقوله وعندما نمر باللافتات أقرؤها بعناية ، وفى وسع الانسان ان يقرأ اللافتات فى طريق العودة ايضا ، فتظهر امامه ، وكانها اصوات مضحكة تدق اذنيه » ·

فالقصة اذن ، هى كل ما يدور فى خلد اليوشا ، من افكار ، وما يسمعه من احاديث ، وما يراه من صور · فليست فيها احداث مثيرة ، او غير عادية ، وانما هى حوادث صغيرة ، يمر بها ملايين المحبين · لكن كازاكوف عن طريق ابراز أثر الواقع اليومى على وعى اليوشا ، ينجح فى اعطائنا صورة واضحة ، عن نمو حب عنيف ، ينتهى الى حزن عميق ، عندما يفقد العاشق فتاته ، عاكسا الينا الاضواء والظلال كما يراها فؤاد بسيط ساذج كفؤاد اليوشا ·

وننتقل الآن الى قصة اخرى من قصصه · انها قصة « فى الجزيرة » ، وهى تصور حبا ، لا يقل فى شقائه عن حب اليوشا ، ولا سيما فى نهايته · فزابافين ، بطل القصة ، رجل متزوج ، فى الخامسة والثلاثين من عمره · وهو رب اسرة ، وله

ولدان • يوفد فى مهمة رسمية ، الى جزيرة فى الشمال ، حيث يلتقى بامرأة شابة، فى السادسة والعشرين من عمرها ، تدعى غوستيا ، وتعمل مديرة لمحطة الارصاد الجوية فى الجزيرة • وتتعدد اللقاءات بين البطلين ، وتزداد الألفة ، فيشرع فى الحديث اليها عن السعادة والحب ، والحياة والشيخوخة • وتتحول الالفة الى حب جارف يسيران فى طريقه اشواطا طويلة ، تنتهى ، بالفراق • انها الليلة الأخيرة ، اذ سيستقل زابافين • مركب الصيد عائدا الى البر الروسى •

وتسأله غوستيا ، وهو يهم بالرحيل ••• « ما هذا ؟ أهذه هى السعادة » فيرد عليها بألم ظاهر ••• » اجل ، اجل ، انها السعادة » • فتقول والدموع تملأ عينيها ••• « آه ياالهى ، » ••• وعند يصبح فى زورقه بعيدا ، وهو يقطع عباب البحر ، يعود بفكره اليها ••• فيقول مناجيا نفسه ••• « اذن هى السعادة ، وهذا هو الحب !! ما اغرب ••• الحب !! » •

ومثل هذه القصة مطعون بها من الناحية الخلقية العقائدية • فهى تعرض عرضا لاحكم فيه ، الشرك العاطفى ، الذى وقع فيه رجل ، كان عليه ان يتصرف تصرفا مغايرا • ان البطل رجل لايشعر بالمسؤولية ، ولكن كازاكوف لايدينه ، لانه لايهتم باصدار الاحكام ، وانما كلما يهمه ، هو ان يعرض ما يحس به رجل وامرأة ، فى علاقة حب عابرة ومستحيلة •ولم يكن يهدف الا ان يرسم لوحة لاختلاطات الحب والسعادة والمرارة والألم • انها صورة اخرى من صور الحياة ، بما فيها من غموض وتعقيد وأسرار ••••

الكاتب الثانى

وننتقل الآن الى زميله يورى ناغيبين • ولد هذا فى عام ١٩٢٠ ، ودرس فن التصوير السينمائى • وعمل ابان الحرب العالمية الاخيرة فى الجهاز السياسى للجيش ، ثم تحول بعد ان اصيب بالجراح ، الى مراسل حربى •

وقد اصدر حتى الآن اكثر من ست مجموعات قصصية ، تتركز معظمها على نفس الافكار التى اهتم بها كازاكوف •••• انها افكار الحب الذى يحمل طابع الشقاء والألم ، ويظهر فى صورة غير عادية •

ويرسم ناغيبين فى قصته « الحب » ، صورة حب برىء يحمله ، صبى ريفى اسمه ايفور • لفتاة تكبره سنا تسمى ناستيا • وقد نشأ هذا الحب منذ كان ايفور فى التاسعة من عمره • ثم يغادر الفتى قريته الى المدينة ليستكمل دراسته • وينقطع أمدا طويلا عن القرية وأبنائها ، فاذا ما عاد اليها بعد سنوات ، وجد أن حبيبته ناستيا قد هجرت القرية • ويسأل عنها ، فيقال له ، انها ، أحبت رجلا له مكانته فى المجتمع ، ولكنه مالبث ان تخلى عنها •

ويلحق ايفور بالفتاة الى المدينة ، باحثا عن فتاته ، ولا يترك زاوية فيها الا

ويطرقها ، لعله يلقاها ، وأخيرا يجدها ، تعمل فى غسل الأطباق فى أحد الفنادق ، ويتحدث اليها ، فيكتشف انهـا قد غدت امرأة متبـــذلة ، بعد أن فقـدت عذارها ، وتتهاوى الصورة البريئة التى اقامها لها فى اعماق نفسه • فهى تتحدث عن الحب ، عارضة آراء جماعها التشاؤم ، وهى تعكس له ، صورا فيها الكثير من الغموض الذى أبعدها عن براءة الفتاة الريفية الساذجة • وهى تقول له •••• آه ، يا ايفور ، كيف يعيش الناس ، ان الانسان لايكاد يتصور ذلك الحلم ، ، فيرد عليهـــا يقول •••• « ان الناس يحبون حياة جدية حافلة بالمتاعب والمصاعب » •

وتتضارب الانفعالات فى نفس ايفور ، التى يعرضها ناغيبين بمنتهى الدقة ، مبرزا تقلبات مشاعره وتأثراته • فالفتى يكتشف انه لم يعد ، لاسباب لايستطيع ان يفهمها ، يحب فتاته التى فقدها ، اذ ان هذه المرأة التى عاد فاكتشفها ، غريبة عنه ، مجهولة لديه • لكن الوفاء يحمله على أن يطلب اليها العودة معه • فتهزأ منه ساخرة ، مستهترة ، وتتكشف له على حقيقتها الجديدة المنحطة ، امرأة مغرورة ، وضـــيعة • ويسمعها هى تتحدث الى رفيقة لها ، عن حبه ، هازئة به • وبعد شد وجذب ، وأخذ ورد ، ترجع الفتاة الى عاشقها القديم •

ويرفض ناغيبين فى قصة هذه ، كما رفض زميله كازاكوف ، الاستجابة لاغراء البساطة فى تصوير الاوضاع • فهو يعرض الصورة الكاملة ، التى لا تشويه فيها • لطيش ناستيا واعوجاجها ، دون ان يزخرفها أو يزوقها ، لانه يريد ان يرســـم الطبيعة البشرية ، وكانها شىء معقد ، أو مختـــــلط ، لانهـا تجمع بين العوامل المتضاربة [٥]

ويصور ناغيبين فى قصة « المنصة الصخرية » ، حب فتاة تحيا حيـــاة اكثر عزلة من حياة غوستيا بطله كوزاكوف فى قصة « الجزيرة » • فالبطل عالم من علماء طبقات الارض • يذهب فى بعثة علمية الى البقاع الجبلية النائية الواقعة على حدود أفغانستان • وهناك يلتقى كاتيا ، المرأة الشابة التى تعيش وحيدة فى محطة التجارب النباتية التى تتولى ادارتها • وتتوثق الألفة بين البطل والبطلة ، ويعرف منها عرضا ، انها أحبت فى الجامعة فتى كان يتميز بالضعف وعدم الاحساس بالمسؤولية • وعندما عينت فى هذه المحطة ، سعت فاستقدمته ليعيش معها فى عزلتها • ولكنه لايلبث ان يحس بالملل بعد بضعة اشهر • فيفر منها ، ومن وحدتها •

وتلجأ الفتاة الى مختلف الوسائل لمعرفة عنوانه ، الى ان تعثر عليـه ، فتكتب اليه مستعطفة ، ومتوسله ، ولكنه يرفض العودة ، ويكون هذا الرفض فى رسالة ، حملها العالم اليها منه •

ويفترق العالم الشاب عن كاتيا ، تاركا اياها فى محطتها النـــائية ، تبكى وحدتها فى الليل ، وقد فقدت كل أمل ، ولا رفيق لها هنـــاك فى مزرعتها الا كلب صغير ، وسلحفاه ، وبعض صغار الفراخ والخنازير • وهى تتحدث الى حيواناتهـــا العجماء هذه ، باثة اياها لواعج حبها وأساها •

لكن القصة ، تختلف عن قصص كازاكوف ، فى انها ليست كلها من الطراز المعتم المتشائم • فكاتيا امرأة باسلة ، وهى تسعى جاهدة لاخفاء الامها • واحتمالها ، مواصلة عملها وكفاحها فى جد ومثابرة وشجاعة • والكاتب يرسم كل هذه العواطف المتناقضة والمتشابكة ، وكأنها حالات نفسية قائمة بذاتها ، جديرة بالدرس والتعمق فى البحث ، وان خلا اسلوبه الادبى ، من التعبيرات الغنائية التى تميز بهـا زميله كاراكوف •

وكان « الصيد » من المواضع التى اكثر ناغيبين من طرقها ، ولعله كان مقلدا لتورجينيف ، ومتأثرا به • وتعتبر قصة « الصيد الاخير » من اروع القصص فى هذا الموضوع ، وكثيرا ما قارن النقاد بينها وبين قصة « العجوز والبحر » للكاتب الامريكى ايرنست همنجواى ، واكدوا ان قصة الكاتب الامريكى متشائمة فى خاتمتها ، بينما كانت قصة ناغيبين اكثر اشراقا واوسع تفاؤلا •

وتدور أحداث القصة حول رجل ألف الصيد ، حتى شاخ ، وأضحت امرأته ، تخشى عليه ، فى المضى اليه كعادته • وتخفى الزوجة بندقيـة رجلها ، ولكنها عنـدما رأته يبكى لضياع بندقيته ، تعود فتردها اليه • ويخرج الى الصـيد من جديد • ويتعمق الكاتب فى وصف مغامرة الصيد ، وينتهى من وصفه الى الايحاء لنا ، بأن الرجل العجوز سيموت • وينحنى الصياد ليلتقط ، أشياء له ، فيشـعر بالدوار ، وبطنين فى اذنيه ، ولكنه يتغلب على ضعفه ، وينتصب واقفـا على قدميه ، ثم يمضى الى الغابة وقد سيطرت عليه حالة نفسية غريبة ، هى جماع من العواطف المتضـاربة وبينها الاحساس بالموت •

وقـد يطول بنا الحـديث ، لو اننا تابعنا قصص ناغيبين كلهـا ، بالتلخيص والايضاح • ولكننا سنكتفى هنا بالحديث عن قصة اخيرة نشرها بعنوان « حوار » • وبطل القصة « ستريزه » ، انسان عادى • ما لبث ان ادى خدمة عامة ابدى فيهـا امتيازا متفوقا ، فكافأه ، رفاقه ، بمنصب له قيمته فى حيـاة القرية ، وهو حارس اراضيها • ويصل كاتب معروف من موسكو ، للصيد فى هـذه الارض • ويلتقى ستريزه ، ويجلسان الى الشراب ، ثم يغرقان فى حوار • ويحس الـكاتب بالزراية لهذا الانسان الذى يقطع عليه حبل تفكيره فى القصة الجديدة التى يكتبها ، فيدفعه الى الافراط فى الشراب ، ليشمله ، ويضمن سكوته •

وتتولد عند ستريزه الرغبة القاهرة • فى ان يحدث الكاتب عن اهم ما علمته اياه الحياة ، وهو الثقة بالآخرين ، ولكنه لايستطيع الافصاح عن افكاره بعد ان ثمل، ويدخل فى احاديث لارابط بينها ، ولا صلة • ويتبين للغريب القادم من موسكو ان ستريزه ليس الا انسانا تافها • وهكذا يكون من المفارقات ، ان الرجل الـذى تعلم قيمة الثقة بالآخرين ، واراد ان ينقل ثمار تجـاربه الى غيره ، لايلقى الا الزراية من الكاتب المعروف •

ويعرض لنا الحوار بين الرجلين ، صعوبة الفهم والتعبير بين الناس ، كما يعرض لنا اهتمام ناغيبين بتصوير ما يحس به المرء من مرارة عندما يفشـل فى ان ينقل الى

انسان آخر ، شيئا من افكاره ، فينساق فى طريق آخر ، يعرف ما يحدث له فيه ، ولكنه لايستطيع التوقف ، متحدثا باشياء واشياء ، لاتمت بصلة الى ما كان يريد ان يقوله • وهو يصور لنا أيضا ، ودون أية لمسة من لمسات الحقد أو السخرية شخصيات أولئك الذين يفقدون السيطرة العقلية على أنفسهم •

قصص جديدة

واذا ما أقبل القارىء على مطالعة ما تنشره الصحافة الادبية السوفياتية من قصص لغير هذين الكاتبين ، تبين له ان بعض الكتاب يحاولون اجتذاب قرائهم ، بسرد الوقائع المثيرة التى تدور احداثها ، فى اماكن غريبة ، يحاولون عن طريقها اخراجهم عن الرتابة التى ألفوها فى قصص العهد الستالينى • وليست قصة كورابينوف « الملجأ السرى فى الغابة » ، الا صورة تجريدية رائعة لحروب العصابات ضد الألمان ، كما ان قصة ليونيد بيرنومايسكى ، « قهوة على طريق بودابست » ، ليست الا لوحة لنضال الشيوعيين فى المجر ، ضد الحكم الديكتاتورى السابق ، وتتحدث قصة افريموف « افاينور ابنة خارخيلين » ، عن حملة عالم اثرى فرنسى فى الصحراء الكبرى وهى تجمع بين متعة • الطرافة والحملة على الاستعمار والتجارب النووية ، بينما تتحدث قصة ميتر « موارت » عن حياة كلب من الكلاب البوليسية •

وهناك طراز ثالث من القصص الجديدة فى الادب السوفياتى ، وهو الطراز الذى يثير المشاكل الاجتماعية والاخلاقية • وقد اكتسب فورونين الشهرة الداوية بقصتين من هذا الطراز تحدث فى اولاهما « الدانوب الازرق » ، عن الصداقة بين رجلين ، تنقلب الى عداء مستحكم • ينتهى بالشجار الذى يطوح بأحدها الى السجن وبالآخر الى المستشفى ، وتحدث فى الثانية ـ وهى قصة « العودة الى البيت » عن مشكلة الخيانة للوطن •

ويعرض فورونين فى الاولى ، قصة رجلين صديقين ، ينقلبان الى عدوين ، ثم يتشاجران ، فيحطم احدهما فك الآخر ، ويقضى عليه بالسجن عاما ونصف عام • وعندما يطلق سراحه ، يقصد صديقه ليعتذر اليه ، فيبادره هذا بطعنة مدية ، تودى به الى المستشفى كما تؤدى بالغريم الى السجن • وتصور الكاتب فى قصته هذه ، العداء بين الرجلين ، على انه شىء يخلو من المنطق ، والعقلانية ، ولكنه لايستطيع ان يقرر أيا منهما هو المخطىء ، أو أين تقع الخطيئة حقا ، وانما يحملها الى القدر ، أو الى تلك القوة الشريرة التى لاتقاوم فى الطبيعة الانسانية •

أما فى قصته الثانية ، فهو يثير موضوعا اكثر تعقيدا • فالبطل جندى سوفياتى ، عاد الى قريته من أسر الالمان ، ليجد فاسيلى ، يعيش هانئا فى بيته مع زوجته واطفاله • ويتذكر الاسير العائد • انه كان قد رأى هذا الشخص أو من يشبهه ، حارسا يخدم الالمان • ويتحدث الرجلان ، فيعترف فاسيلى بالحقيقة ، قائلا ••• « لقد أردت أن أعيش » • ويتوسل الى البطل ألا يشى به ، عارضا قضية تستفز

الاشفاق على أولئك الذين ضعفوا عندما واجهوا الموت ، فخافوا وطنهم ، ثم أفلحوا فى العودة الى صفوف الشرفاء بعد أن أخفوا خيانتهم ٠

وكان على ايفان ان يقرر ، هل ، يحطم حياة فاسيلى وعائلته ، او يترك القرية دون ان يشى به ٠ ويحدث نفسه قائلا « لقد انتهت الحرب منذ سنوات طوال ، ولكنها مازالت دائرة فى حياتنا ، ان فاسيلى يستثير شفقتى » ٠

لكن هذا الموقف العطوف المارق على رجل خائن ، اثار غضـــب الكثيرين من القراء والنقاد ٠

هذه صور خاطفة ، رأيت ان اعرض فيها لمحا عابرة من الاتجاهات الجديدة فى الادب السوفياتى ، وهو الادب ، الذى انطلق من جديد ، وفى عهد خروشـــوف ، ليرسم الحياة بواقعها والامها ، وعواطفها واشراقها ٠

ولعل خير ما نختم به هذا الحديث لاعطاء الصورة الصحيحة ، لهذه الاتجاهات٠ هو ما قاله ايفان انيسيموف الناقد المعروف ، ومدير معهد جوركى للادب العالمى فى مقال له عن القصة الحديثة ٠٠٠ « اصبحت القصة الحديثة هى مدار الحديث والنقاش بين أدباء العالم ٠ وقد اتضح أن هناك اتجاهين يتباينان كل التباين ، فى النظر الى القصة كفن من فنون الحياة ٠ فالاتجاه الاشتراكى يرى أن من واجب القصة كفن ، ان تؤدى دورا بارزا وفعالا ، فى خلق قيم اجتماعية وانسانية جديدة ٠ فهى عمل ايجابى بناء ، يسهم فى اقامة المجتمع الاشتراكى السليم ٠

« اما الاتجاه الثانى فيقول بان القصة قد فقدت كل صلة لها بالمجتمع ، ولم تعد تكس فى العالم البورجوازى الحديث ، الا كل معالم الانحلال الروحى ٠

« وهكذا يقوم الصراع بين البحث عن القصة التى تخلق الكمال الانسانى وبين القصة التى تنشد انحلال البشرية وتفسخها » ٠